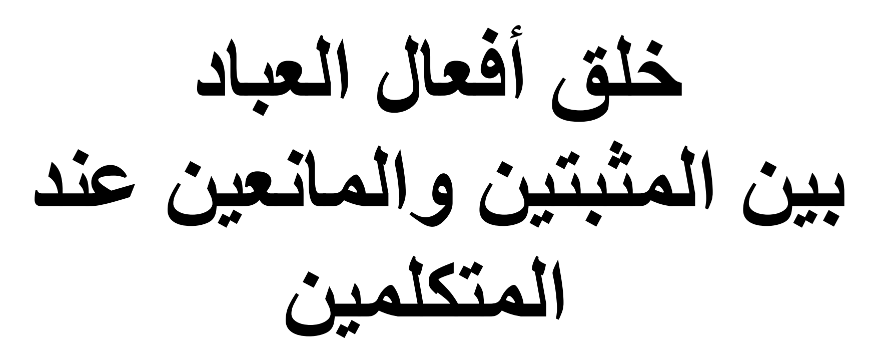


خلق أفعال العباد بين المثبتين والمانعين عند المتكلمين

الجامعة العراقية/ كلية العلوم الإسلامية

د. مؤيد محمود حسن

The impact of humanitarian instinct In the knowledge of God

Dr. MUYAD Mahmoud Hassan

الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعينأما بعد.من المعلوم أن مسألة خلق أفعال العباد من المسائل الشائكة التي خاضت فيها فرق الأمة بحق وباطل, ولأهمية الموضوع فإني قد عزمت على البحث فيه بينت فيه بخطة متكاملة من مقدمة ،وتمهيد تكلمت فيه عن نشأة القول بالقدر وعن اختلاف المتكلمين في هذه المسألة الشائكة، وانها وقعت من زمن الصحابة (رضي الله عنهم) ،وكذلك مراتي القدر وعلاقتها بأفعال العباد، وبينت فيه الخلاف بين علماء اهل الكلام حول خلق أفعال العباد فمنهم من قال بخلقها من الفرق ومنهم من انكر خلق افعال العباد من الفرق وأدلتهم، وبينت المذهب الحق في هذه المسألة، ووسطية أهل السنة بكلام الشافي الكافي من ابن القيم يتبين لنا أن مذهب أهل السنة في القدر توسط بين الجبرية والقدرية فاثبت خلق الله لأفعال العباد مع إعطائهم قدر من الحرية في أفعالهم وهي تقع بإرادتهم واختيارهم وما كان من الأفعال إذا كان يقع بغير إرادتهم فإنه لا محاسبة عليه عند الله ،وبينت ماهي الإشكاليات التي دارت حول مراتب القدر وعلقتها بأفعال العباد والله أعلم بالصواب.وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

Summary

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, and prayers and peace be upon our Prophet Muhammad and his family and companions But after

It is well known that the issue of creating acts of worship is a thorny issue in which the nation's divisions fought right and wrong, and the importance of the subject. I have decided to look at it. I have outlined an integrated plan of introduction and a preface. I spoke about the origin of the saying to the extent and the different speakers in this thorny issue. From the time of the Companions (may Allah be pleased with them), as well as the times of destiny and their relationship to the acts of worshipers, and showed the difference between the scholars of the people about the creation of acts of worship, some of them said by creating the difference and some of them denied the creation of acts of worship of the difference and evidence, And the centrality of the Sunnis with the words of the sufficient healer of a son We find that the doctrine of Ahl al-Sunnah in al-Qadr mediated between algebraic and fatalism, so that God created the actions of the worshipers while giving them a measure of freedom in their actions and they were willing to choose them and if they were committed against their will, it is not accountable to Allaah. What are the problems that have taken place?

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد...من المعلوم أن مسألة خلق أفعال العباد من المسائل الشائكة التي خاضت فيها فرق الأمة بحق وباطل, ولأهمية الموضوع فإني قد عزمت على البحث فيه وفقا للخطة التالية: **المقدمة التمهيد.المبحث الأول:** أفعال العباد **المطلب الأول:** مراتب القدر وعلاقتها بأفعال العباد.**المطلب الثاني:** القائلون بخلق أفعال العباد.**المطلب الثالث :**.أدلتهم.**المبحث الثاني:** القائلون بعدم خلق أفعال العباد.**المطلب الأول:** القائلون بعدم خلق أفعال العباد.**المطلب الثاني:** أدلتهم .**المبحث الثالث:** المذهب الحق ووسطية أهل السنة.**المطلب الأول:** المذهب الحق ومنشأ الخلاف .**المطلب الثاني:** وسطية أهل السنة في نصوص أفعال العباد.**المطلب الثالث:** إشكاليات حول مراتب القدر وعلاقتها بأفعال العباد.**الخاتمة.**

التمهيد

نشأة القول القدر

الكلام في مسائل القدر في الإسلام هي مسألة في قديمة منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم في حياة النبي ﷺ, وهذه المسألة وإن وقعت في عهدهم فإنها لا تعني انشقاقاً وإيذاناً بظهور بدعة, بل كان عهدهم غاية في النقاء والصفاء. لكن القارئ في كتب السنة يجد بعض الحوادث الدالة على وجود نقاش في مسألة القدر[١] وعلى سبيل المثال ما روى أبو هريرة ﷺ قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر فغضب واحمر وجهة حتى كأنه فقيء في وجنتيه الرمان فقال: (أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر, عزمت عليكم لا تتازعوا فيه)[٢]. فهذه الحادثة دالة على وجود الخلاف في القدر في عهد الصحابة لكن هذا الخلاف لم يستمر بل توقف الصاحبة في أمره من ذلك الحين وليم يخوضوا فيه كما خاص فيه أمل البدع فكانوا أسلم الناس قلوباً بل إنهم ندموا على فعلتهم تلك فقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص بعد تلك الحادثة كما في رواية ابن ماجه[٣] ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه إذا ليست المسألة مشكلة كبرى في عصر الصحابة أو أن بذرت القدرية كانت من الصحابة, فهم ﷺ لم يعرف

عنهم بدعة, لا كما يصور بعض الكتاب ذلك . وأما حدوث بدعة نفي القدر فقد حدثت في أواخر عهد الصحابة ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه[٤] عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال بالقدر في البصرة معبد الجهني, فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوقف لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الأمر إلي فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم .....وأنهم يزعمون ألا قدر وأن الأمر أنف .. فهذا الحديث دال على أن معبداً هو أول قائل بالقدر. قول الشهرستاني: (فحدث في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الأسواري في القول بالقدر ....)[٥]. تم تلقفت المعتزلة هذا القول لكن بشكل أقل غلواً .

المبحث الأول
خلق أفعال العباد

المطلب الأول: مراتب القدر وعلاقتها بأفعال العباد

أولاً: الإيمان بعلم الله الشامل: وهذه أعظم مراتب القدر وهي محل إجماع جميع الفرق إلا القدرية الأوائل فقد نفوا هذه المرتبة القدر وهذا معنى قولهم أن الأمر أنف, أي مستأنف لهم بسبق لله فيه علم، وهؤلاء هم من تبرأ الصحابة ﷺ منهم, وهم المعنيون بقول السلف ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا, وقد قال عمر بن عبد العزيز لغيلان: يا غيلان إنك إن أقررت بالعلم خصمت وإن جحدته كفرت[٦].وهذه المرتبة لا يلزم من إثباتها إثبات خلق الله أفعال العباد, بل ليس فيها سوى أن الله عالم ما العباد عاملون, والآيات والأحاديث في إثبات هذه المرتبة كثيرة كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢ ﴾: الطلاق: ١٢ وسئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين **فقال** (الله أعلم بما كانوا عاملين)[٧].

ثانياً: الكتابة في اللوح المحفوظ: دليل ذلك ما روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة, قال: وكان عرشه على الماء)[٨] وكتابة المقادير في اللوح متفق عليها بين الفرق حتى المعتزلة, وهذه المرتبة لا يلزم من إثباتها خلق الله لأفعال العباد, بل ليس فيها إلا أن الله كتب ما العباد عاملون .

ثالثاً: المشيئة: فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فلا حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ ﴾ التكوير: ٢٩, وهذه المرتبة والتي بعدها,– وهي الخلق – زلت فيها عقول ولم تفهمها .كما سيأتي .

رابعاً: الخلق: قررت كثير من النصوص أن الله خالق كل شيء, ومن هذه الأشياء خلق أفعال العباد, وإن كان جمهور الفرق يقرون بهذه المرتبة حتى المعتزلة إلا أنهم نفوا أن تكون أفعال العباد داخلة تحت هذه المرتبة, كما أن من أثبت هذه المرتبة يختلفون في فهمها فالسني يستدل بها والجبري الجهمي يستدل بها وفرق بين الاستدلال والاستدلال وسيأتي مزيد بحث لهذه المسألة المهمة .ويستدل لهذه المرتبة بقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ ﴾ الزمر: ٦٢, وغيرها كثير من الآيات والأحاديث التي يضيق المقام عن ذكرها[٩]. ووجه الدلالة في هذه الأيات تبين لنا أن الله يخلق في عباده هذه الأعمال ،ولأن كل شيء نعمله يكون تابعا لمشيئته سبحانه ولكن بما كسبته أيدينا .والله الموفق.

المطلب الثاني: القائلون بخلق أفعال العباد

كنت تكلمت في الحديث عن مراتب القدر أن القدرية الأوائل هم الذين أنكروا مراتب القدر الأربعة لكن هذه الفرقة ما لبثت إلا أن انقرضت, لكن أفكارها لم تنقرض ببعض أفكارها فنفوا مشيئة الله وخلقه لأفعال العباد, وقد استدلوا فيما ذهبوا إليه ببعض الأدلة العقلية والنقلية وفي المقابل من المعتزلة كانت معظم الفرق الإسلامية تقول بخلق الله لأفعال العباد سواء كانت خير أو شر على خلاف في فهم معنى هذا الخلق .

أقوال الفرق المثبتة للخلق

ذكرنا أن معظم الفرق ترى أن الله خالق لكل شيء ومن ذلك أفعال العباد وإن اختلفت آرائهم في مذاهبهم في القدر وسأوجز الكلام في مذاهبهم ليكون مدخلاً على الأدلة.

١. **قول الجبرية الخالصة:**





وأهم فرقها هم الجهمية: القائلون أن أفعال العباد مخلوقة والإنسان ليس إلا كالريشة في مهب الريح ليس له قدرة ولا اختيار وهذا هو الجبر المحض والذي أنكره سائر الطوائف(١٠).

٢. **الجبرية المتوسطة:**

الأشاعرة والماتريدية وهؤلاء كلهم يقولون إن الله خالق أفعال العباد لكن الإشكال في قولهم هو مدى تعلق أفعال العباد بالعباد، وهل هم فاعلون لها على الحقيقة ؟ فجمهور الأشاعرة في هذه المسألة يقولون بالكسب وهو كما يعرفونه ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به, فأفعال العباد ليس لقدرتهم تأثير فيها بل الله أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختياراً من غير أن يكون منه تأثير ومدخل .هذا الكلام هو ما حمل البعض على تصنيف المذهب الأشعري أنه مذهب جبري(١١). أما الماتريدية: فتميزوا بإثبات إرادة جزئية غير مخلوقة وأمرها بأيديهم والله لا يخلق فعل العبد إلا بعد أن يريده العبد ويختاره وقولهم هذا قربهم من المعتزلة(١٢).

٣. **أهل السنة والجماعة:**

القائلون بالمراتب الأربع وأن " للعباد قدرة على أعمالهم والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم"(١٣) ويقول ابن القيم – والصواب أن يقال تقع الحركة بقدرة العبد وإرادته التي جعلها الله فيه فالله تعالى إذا أراد فعل العبد خلق له القدرة والدواعي إلى فعله فيضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة السبب إلى مسببه, ويضاف إلى قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق"(١٤). ويقول أبو زيد القيرواني في رسالته: والإيمان بالقدر خيرة وشره حلوه ومرة, وكل ذلك قد قدرة الله ربنا, ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه . علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ الملك: ١٤ يضل من يشاء فيخذله بعدله, ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله, فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى أو يكون خالق لشيء إلا هو رب العالمين ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم(١٥).

المطلب الثالث: أدلـــتهم:

استدل القائلون بأن أفعال العباد مخلوقة بعدة أدلة.لكن مما ينبغي التنبه إليه أن هؤلاء الفرق في فهمهم لهذه الأدلة ليسوا على حد سواء فالجبري يستدل بها والأشعري يستدل بها ولكن يختلف الفهم لهذه الأدلة وسيأتي لهذه المسألة إن شاء الله مزيد من التوضيح .وهذه الأدلة كما يلي:

أولا: من الكتاب

١. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ الأنفال: ١٧ فالآية دالة على أن الله هو الذي خلق هذا الفعل

٢. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ الصافات: ٩٦ فهو سبحانه خالقهم وخالق أعمالهم .

٣. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ ﴾ النحل: ٩٣

٤. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ التوبة: ١١٥

ثانيا: من السنة.

٥. عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله يصنع كل صانع وصنعته)(١٦).

٦. عن طاووس قال: أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر وسمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ (كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)(١٧).

٧. قول النبي ﷺ لأشج عبد القيس (إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله قال: وما هما يا رسول الله ؟ قال: الأناة والتؤدة قال: أجبلاً جبلت عليه أو تخلقا مني قال: بل جبلا جبلت عليه قال: الحمد الله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله)(١٨).

٨. جاء في حديث الاستخارة (وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير)(١٩) قال الحافظ ابن حجر: وفيه دليل لأهل السنة أن الشر من تقدير الله على العبد لأنه لو كان يقدر على اختراعه لقدر على صرفه ولم يحتج إلى طلب صرفه(٢٠)

٩. حديث احتجاج آدم وموسى المشهور(٢١) قال الحافظ: وفيه حجة لأهل السنة في إثبات القدر وخلق أفعال العباد(٢٢).

١٠.قول حذيفة: لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيراً منكم ثم تابوا فتاب الله عليهم[٢٣]. قال الحافظ " ويستفاد من حديث حذيفة أن الكفر والإيمان والإخلاص والنفاق كلّ يخلقه الله "[٢٤].

الأدلة العقلية:

١.إذا كان الله خالق كل شيء وهو خالق العباد جميعاً باتفاق فما الذي أخرج أعمال العباد من هذا العموم ؟

٢.لو قلنا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله للزم من ذلك محذور عظيم ألا وهو وقوع بعض الأفعال رغماً عن الله سبحانه ! والله لا مكره له, وهذا الكلام يلزم منه إثبات العجز على الله .

المبحث الثاني
القائلون بعدم خلق الله لأفعال العباد

المطلب الأول :أقوال الفرق

يعد القدرية هم رأس من قال بهذا القول فأما القدرية الأولى والذين كفرهم السلف فقد أنكروا مراتب القدر الأربعة وهؤلاء ليس لهم وجود, بل انقرضوا . ثم جاءت القدرية الثانية وهي المعتزلة فأثبتوا العلم والكتابة وأنكروا المشيئة والخلق ومن الخلق خلق أفعال العباد فقالوا بأن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه وليس الله سبحانه هو الذي يخلق هذه الأفعال[٢٥] يقول القاضي عبد الجبار في معرض كلامه عن خلق أفعال العباد: " والغرض به في أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم وأنهم المحدثون لها "[٢٦].ويقول الأشعري عنهم: " أجمعت المعتزلة على أن الله سبحانه لم يخلق الكفر ولا المعاصي ولا شيئاً من أفعال غيره إلا رجلاً منهم فإنه زعم أن الله خلقها بأن خلق أسماءها وأحكامها . "[٢٧] وقد تبع المعتزلة في هذا القول فرقة الإمامية[٢٨] – المتأخر منهم خاصة – بل إن معظم الأصول العقدية لهم إنما هي أصول اعتزالية وتبقى ميزة الإمامية في مسألة الإمامة .

المطلب الثاني : أدلتهم :

استدل القدرية من معتزلة وإمامية وغيرهم بعدة أدلة عقلية ونقلية والذي ينظر إلى الأدلة التي استدلوا بها يجد أن هؤلاء القوم قد أخذوا ببعض الكتاب وتركوا بعضه الآخر, فهم عندما اعتقدوا بعقولهم استحالة خلق الله للشر أخذوا يبحثون عن ما يوافقهم في هذا الفهم من القرآن الكريم وتركوا الآيات والأحاديث الكثيرة الدالة على خلق الله لأفعال العباد .وسأوجز الكلام عن هذه الأدلة[٢٩].

الأدلة النقلية:

١. الآيات الدالة على مدح المؤمن على إيمانه وذم الكافر على كفره قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ التوبة: ١١٤.

٢. الآيات الدالة على المجازاة على الأفعال قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الجاثية: ٢٨..الآيات الدالة على أن أفعال العباد مسندة إليهم وصادرة عنهم, قَالَ تَعَالَى:﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ يوسف: ١٨ إن الله نزه نفسه عن الظلم, قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ غافر: ١٧ إن الله سبحانه ذم عباده على الكفر والمعاصي, قَالَ تَعَالَى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٨ . ويقبح منه أن يخلق الكفر في الكافر ويوبخه .

٣. الآيات الدالة على الإنكار, قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ آل عمران: ٧١ . الآيات الدالة على أن الله خيَّر العباد في أفعالهم وجعلها معلقة بمشيئتهم, قَالَ تَعَالَى:﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف: ٢٩

٤. الآيات الدالة على إنكار من نفى المشيئة عن نفسه وأضافها إلى الله، قَالَ تَعَالَى:﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ الأنعام: ١٤٨

الأدلة العقلية:

١. إننا نعلم بالضرورة فرقاً بين حركاتنا الاختيارية والاضطرارية وحركة الجماد ونعلم بالضرورة قدرتنا على الحركة الأولى كحركتنا يمنة ويسرة وعجزنا عن الثانية كحرتنا إلى السماء وحركة الواقع من شاهق وانتفاء قدرة الجماد .

ومن أسند الأفعال إلى الله تعالى ينفي الفرق بينها ويحكم بنفي ما قضت الضرورة بثبوته .

٢. لو كانت الأفعال كلها منسوبة إلى الله لم يعد عندنا فرق بين من أحسن إلينا غاية الإحسان وبين من أساء إلينا غاية الإساءة طول عمره وكان يقبح من شكر الأول وذم الثاني لأن الفعلين صادرين عن الله لا عن الفاعلين .

ولما علمنا بطلان ذلك وأنه يحسن منا مدح الأول وذم الثاني علمنا بأن العلم بإسناد الأفعال إلينا قطعي لا يقبل الشك .
٣. لو كانت الأفعال صادرة عن الله قبح منه أن يأمرنا وينهانا ويكلفنا .
٤. أنه يلزم منه أن يكون الكافر مطيعاً لله تعالى بكفره, لأنه قد فعل ما هو مراد الله[٣٠].

المبحث الثالث
المذهب الحق ووسطية أهل السنة

المطلب الأول: منشأ الخلاف بين الفرق

تبين لنا من سبق أدلة الفرق القائلين بأن الله خالق لأفعال العباد إذ لا يجوز أن يخرج شيء عن ملكه وفي المقابل نجد القدرية وغيرهم يقولون بعدم خلق الله لأفعال العباد وكل فريق يستدل بأدلة فمن يا ترى هو الأدحض بهذه الأدلة ؟ إن المستقرئ لآراء الجبرية بأنواعها أو القدرية يجد أن سبب هذا الخلاف خلطٌ في فهم النصوص الشرعية أدى إلى تخبط في باب القدر . فالجبرية سلبوا العبد قدرته واختياره فهم أثبتوا القدر وآمنوا بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه, وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وهذا حق لكنهم علوا حتى نفوا الحكم وتأثير الأسباب في الجمادات والحيوانات, وهؤلاء قد أعرضوا عن الأمر والنهي والوعد والوعيد[٣١] .. ومن الجبرية في نهاية المطاف فرقة الأشاعرة حتى صرح بعض متأخريهم بقوله "إن العبد مجبور في جميع أفعاله"[٣٢] وفي المقابل نرى الضد الكامل للجبرية وهم القدرية النفاة, والمعتزلة من القدرية وإن أثبتوا مرتبة العلم والكتابة إلا أنهم نازعوا في المشيئة والخلق فأخرجوا أفعال العباد، ومنشأ الشبهة عندهم هو ما يقع من المعاصي والفساد فزعموا أن الله لا يمكن أن يريد هذه الأشياء ولا يخلقها لأنها قبيحة وغير متقنة فنتج من ذلك أن أولوا جميع الآيات والأحاديث المعارضة لمذهبهم[٣٣]. ومن أهم المسائل التي أدت إلى ضلال هؤلاء الناس في مسألة القدر, والتي بفهمها تزول كثير من الإشكاليات وبمعرفتها يحصل الجمع بين الأدلة ويرتفع ما يتوهم من تناقض واختلاف بين نصوص الشرع, هذه المسألة هي التفريق بين الإرادة من جهة والمحبة والرضا من جهة أخرى ومعرفة نوعي الإرادة في كتاب الله . فالجبرية من جهمية وأشاعرة وغيرهم وكذلك القدرية من المعتزلة وغيرهم سوى بين الإرادة والمحبة والرضا وأنها بمعنى واحد[٣٤]. فالجهمية والأشاعرة قالوا: قد علم بالكتاب والسنة والإجماع أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ولا يكون خالقاً إلا بقدرته .. وكل ما في الوجود فهو بمشيئة الله وقدرته .. وإذا كان مريداً لكل حادث والإرادة هي المحبة والرضى فهو محب راضٍ لكل حادث, وقالوا: كل ما في الوجود من كفر وفسوق فإن الله راضٍ به, محب له كما هو مريد له[٣٥].

وأما القدرية فقالوا: معلوم أن الله يحب الإيمان ولا يرضى الفساد ولا الكفر لعباده فيلزم من ذلك أن يكون كل ما في الوجود من معاصي واقعاً بدون مشيئتة وإرادته وخلاف أمره فلا يكون الله عندهم مريداً لغير ما أمر به[٣٦].

بيان المذهب الحق:

أن يقال: إن الإرادة إذا أطلقت في الكتاب والسنة فهي قسمان:

الأول: إرادة كونية: وهي بمعنى المشيئة وهي الإرادة العامة التي يسير بها نظام الكون والخلق والعالم سواء كانت هذه الأمور خيراً أو شراً كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ البقرة: ٢٥٣

الثاني: إرادة شرعية: وهي محبة المراد ومحبة أهله والرضا عنهم كقوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ البقرة: ١٨٥ . .فيكون معناها يحب الله أن ييسر عليكم. ولكن لا يلزم أن تكون جميع أمورنا ميسرة فنحن نرى بعض الأمور صعبة, وأهل السنة عندما فرقوا بين الإرادتين زالت عنهم الإشكالات في القدر فوازنوا بين النصوص فكانوا هم الأسعد بالحق[٣٧].

الفرق بين الإرادتين[٣٨]

الكونية	الشرعية
١- قد يحبها الله وقد لا يحبها	محبوبة لله
٢- قد تكون مقصودة لغيرها كخلق إبليس	مقصودة لذاتها فالله أراد الطاعة وأحبها
٣- لا بد من وقوعها	لا يلزم وقوعها
٤- متعلقة بربوبية الله وخلقه	متعلقة بوصية الله وشرعه

جهة تعلقها بما لا يحبه الله ولا يرضاه وأخص لا تتعلق بمثل إيمان الكافر	تعلقها بكل مأمور به وأخص من جهة أن الواقع بـ قد لا يكون مأمور به

المطلب الثاني :وسطية أهل السنة في نصوص أفعال العباد بين الجبرية والقدرية

كنت ذكرت في صفحات مضت أن معظم الفرق مقرة بأن الله خالق أفعال العباد وذكرت شيئا من الأدلة في ذلك ثم ذكرت الطرف المقابل في هذه المسألة وهو قول القدرية في نفي خلق الله لأفعال العباد . والحق أن الجبرية أصابت في القول بأن أفعال العباد مخلوقة لكنها أخطأت في نفي الإرادة عن العبد والاختيار له بينما أصابت القدرية في إثبات قدرة للعبد لكنها أخطأت في جعلها مستقلة عن إرادة الله .يقول ابن القيم –: "وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب وبعضهم أقرب إلى الخطأ وأدلة كل منهم وحجته إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى, لا على إبطال ما أصابوا فيه .فكل دليل صحيح للجبرية إنما يثبت قدرة الرب تعالى ومشيئته, وإنه لا خالق غيره وأنه على كل شيء قدير لا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات وهذا حق ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادراً مريداً فاعلاً بمشيئته وقدرته, وأنه هو الفاعل حقيقة وأفعاله قائمة به وأنها فعل له لا لله, وأنها قائمة به لا بالله .وكل دليل صحيح يقيمه القدرية فإنما يدل على أن أفعال العباد فعل لهم قائم بهم واقع بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم, وإنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه قادراً على أفعالهم وهو الذي جعلهم فاعلين"[٣٩].وبهذا الكلام الشافي الكافي من ابن القيم يتبين لنا أن مذهب أهل السنة في القدر توسط بين الجبرية والقدرية فاثبت خلق الله لأفعال العباد مع إعطائهم قدر من الحرية في أفعالهم وهي تقع بإرادتهم واختيارهم وما كان من الأفعال إذا كان يقع بغير إرادتهم فإنه لا محاسبة عليه عند الله, ونزيد هذه المسألة إيضاحاً بكلام نفيس للسعدي حول أفعال العباد وإنها تنسب إليهم فعلاً ولله خلقاً يقول: " هذا الأمر ثابت عقلاً وحساً وشرعاً ومشاهدة ومع ذلك فإذا أردت أن تعرف أنها كذلك واقعة منهم واعترض معترض وقال: كيف تكون داخلة في القدر وكيف تشملها المشيئة ؟ فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها فهي بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وهذا يعترف به كل أحد, ويقال أيضاً إن الله خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم والجواب كذلك يعترف به كل أحد وأن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال كما أنه الخالق للأفعال وهذا الذي يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار[٤٠]. وباختصار يقال: الإنسان عندما يريد العمل فلا بد أن يكون عنده إرادة للعمل وقدرة عليه والذي خلق الإرادة والقدرة هو الله .

المطلب الثالث :إشكاليات حول مراتب القدر وعلاقتها بأفعال العباد :لما كان من طبيعة الإنسان حب التبرير لأفعاله الخاطئة وكثرة الجدال قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ الكهف: ٥٤ ومع هذا ضعف الإيمان عنده بنصوص القدر مع ما يخيله الشيطان له من إشكالات أقول: ظهر نتيجة لذلك بعض الأسئلة حول أفعال الإنسان ما دام أننا قررنا أنها من تقدير الله وهذه الأسئلة كالتالي:

الأول: ما دام الله عالماً بما ستكون عليه أعمالنا وما سنصير إليه فلماذا العمل والتعب ما دام أن المصير هو ما في علم الله[٤١] ؟

الجواب: أولاً: لا يلزم من علم الله لأعمالنا وما ستؤول إليه, أن نختار الخير أو الشر أو لا نختاره, فهو علم ما سنعمل, وعلم الله ليس له علاقة في تغيير إراداتنا فلو جاء إنسان إلى موظف وطلب منه خدمة فأحاله الموظف إلى المدير وقال الموظف في نفسه إني أعلم أن المدير لن يستجيب له وفعلاً لم يستجيب له فهل علم هذا الموظف بأن المدير لن يستجيب هو الذي جعل المدير لا يستجيب؟

ثانياً: مع علم الله بأعمالنا فإنما جعلنا نعمل ليقيم الحجة كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ الأنفال: ٤٢

الإشكال الثاني:

إذا كان الله أراد كل شيء وكل شيء بإرادته فإذا شربت الخمر فهو بإرادة الله فكيف يحاسبني ؟

الجواب: أولاً هذا الإشكال ناتج من الخلل في فهم الإرادة الكونية والشرعية والفرق بينهما, وقد تكلمت عليه في ما مضى ولكن أجيب باختصار أن إرادة الله لشربك للخمر إنما هو بإرادته الكونية العامة وهي تعني أن الله ربما يقدر شيئاً رغماً عنك كيوم ولادتك ولونك وجنسك ولما كان ليس لك فيها اختيار لم يحاسبك عليها وأما الأعمال الاختيارية فمعنى إرادة الله لها أن يتركك وسبيلك تختار ما تشاء مع أنه سبحانه قادر على منعك ولكنه يتركك وشأنك .

ثانياً: لو قلنا أن الله لم يرد شرب الخمر – إرادة كونية – للزم من ذلك لوازم باطلة ومنها أن شرب الخمر وقع رغماً عن الله فهل يعطى الله رغماً عنه, وهل يقع في ملكه ما لا يريد؟ وقد قال غيلان لميمون بن مهران: أشاء الله أن يعصى فقال له ميمون أفعصي كارهاً ؟[٤٢]

ثالثاً: أن إرادة الله للشر ليس لذاته بل لغيره ولما كان هذا ليس فيه مصلحة لذاته إلا أنه وسيلة لمقصود الله ومراده فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته, مراد له من حيث قضاؤه[٤٣].

الخاتمة

تبين لي من هذا البحث المختصر النتائج التالية:

١. إن الناس مهما بحثوا ونقبوا فإنهم لن يصلوا بعقولهم كنه أقدار الله في عباده والقدر سر الله المكتوم يصعب الاطلاع على حقيقته إلا بنور من الله .

٢. لن يستطيع العقل أن ينزه الله حق التنزيه وإن سعى إلى ذلك فلربما وقع في الخطأ اكثر من الصواب. وهذا مافعلته المعتزلة عندما نزهوا الله عن خلق أفعال العباد وتنزيهم هذا أوقعهم في شر كبير وهو أن للعالم خالقين ولهذا سموا مجوس هذه الأمة وهم القدرية في القدر .

٣. إن ضلال الفرق في الأخذ ببعض النصوص وترك بعضهاالأخر وعدم الجمع بينها أدى بهم إلى الضلال في خلق أفعال العباد وتعلقها بهم, وهكذا فإنك تجد أن معظم البدع الاعتقادية كانت لهذا السبب،والله أعلم .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

هوامش البحث

(١) انظر القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة للمحمود ص ١٤٧, القدرية والمرجئة للدكتور ناصر العقل ص ٢٢.

(٢) رواه الترمذي في السنن ٤/٤٤٣, وله شاهد عند ابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ١/٣٣ رقم (٨٥).

(٣) السنن ١/٣٣ .

(٤) صحيح مسلم،مسلم بن الحجاج النيسابوري،ت محمد فؤاد عبدالباقي،دار احياء التراث،بيروت، ١/٣٦ رقم (٨) .

(٥) الملل والنحل تحقيق سيد كيلاني ١/٣٠, وينظر القضاء والقدر في الإسلام لفاروق دسوقي ٢/٩١ .

(٦) ينظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية لشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني٢٣/٣٤٩؛ طريق الهجرتين لإبن القيم الجوزية ١/٢٤٤ ؛ وقول غيلان انظره في السنة لعبد الله بن أحمد ٢/٤٢٩ وفي السنة للالكائي ٤/٧١٤ وقد جاء عن أحمد تكفير من يقول بقولهم: أنظر المسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ١/١٤٢ .

(٧) رواه البخاري في صحيحه ١/٤٦٥ رقم ١٣١٧ ؛ومسلم في صحيح مسلم ٤/٢٠٤٩ رقم ٢٦٥٩ .

(٨) رواه مسلم في كتابه صحيح مسلم ٤ / ٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

(٩) ينظر في هذه المراتب وأدلتها: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ص٢٩, معارج القبول للحكمي ٣/٩٢٠ وأعلام السنة المنشورة له أيضاً ص ١٤٨ القضاء والقدر للأشقر ص٢٩ والإيمان بالقضاء والقدر للحمد ص٥٩ . والقضاء والقدر للمحمود ص ٥٥ .

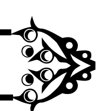
(١٠) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٩٩، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للنشار ١/٣٤٣، القضاء والقدر في الإسلام لفاروق دسوقي ٢/٨٠.

(١١) انظر أفعال العباد في القرآن الكريم لعب العزيز المجدوب ص ١٠٨. والقضاء والقدر للمحمود ص ٣٠٨ . والآمدي وآراءه الكلامية ص ٤٧٤.

(١٢) الماتريدية لأحمد الحربي ص ٤٣٨ .

(١٣) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ضمن مجموعة الفتاوى ٣/١٥٠) وانظر شرح الواسطية لابن عثيمين ٢/١٩٣، الكواشف الجلية لعبد العزيز السلمان ص ٦١٤ وشرح الواسطية للهراس ص ٢٢٠ .

(١٤) شفاء العليل ص ١٤٦.



(١٥) الرسالة ص١٨-١٩، وكلام السلف في هذه المسألة أكثر من أن يحصى للاستزادة انظر المسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة ١٤٧/١ عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص ٢٧٩، الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة ص٢٢-٢٣ تحقيق الكوثري .

(١٦) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٤٦، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٩/٣ رقم ٩٤٣، البيهقي في الاعتقاد ص١٤٤

(١٧) رواه مسلم في الصحيح ٢٠٤٥/٤ رقم ٢٦٥٥ .

(١٨) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٨٨/٩ وعزاه إلى الطبراني وقال رجاله ثقات ولم أجده في كتب الطبراني بهذا اللفظ فالله أعلم: انظر المعجم الكبير ٢٣٠/١٢ والمعجم الأوسط ٣٠/٣ و٢٥٩/٥ والمعجم الصغير ٦٧/٢ .

(١٩) رواه البخاري في صحيحه ٣٩١/١ رقم ١١٠٩.

(٢٠) فتح الباري ١١ / ١٨٦

(٢١) رواه البخاري ٦ / ٢٧٣٠ رقم ٧٠٧٧

(٢٢) فتح الباري ٥١٢/١١.

(٢٣) رواه البخاري ١٦٨٠/٤ رقم ٤٣٢٦ .

(٢٤) فتح الباري ٨ /٢٦٧

(٢٥) انظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني ص ٣٠٢ المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق ص ١٧١

(٢٦) شرح الأصول الخمسة ،للقاضي عبد الجبار، تحقيق الدكتورعبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة مصر، الطبعة الأولى،(١٣٨٤هـ_١٩٦٥م) ص ٣٢٣

(٢٧) مقالات الإسلاميين ص ٢٢٧ لكن ذكر ابن حزم في الفصل أن أهل السنة وغيرهم كلهم ..مجمعون أن جميع أفعال العباد مخلوقة خلقها الله عز وجل ووافقهم على هذا موافقة صحيحة من المعتزلة ضرار بن عمرو وحفص الفرد, الفصل ٣٢/٣ .

(٢٨) انظر موقف الإمامية من القدر وأفعال العباد في أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية لناصر القفاري ٦٣٨/٢ .

(٢٩) جمع العالم الشيعي الحسن بن المطهر رسالة بعنوان (استقصاء النظر في البحث عن القضاء والقدر) جمع في هذه الرسالة وحشد فيها جمعاً من الأدلة العقلية والنقلية فيما ذهب إليه المعتزلة والإمامية من نفي خلق الله لأفعال العباد وهذا العالم الشيعي – للفائدة – هو الذي رد عليه ابن تيمية عندما كتب (منهاج الكرامة) فرد عليه بـ (منهاج السنة النبوية) .وبما أن ابن المطهر قد رتب هذه الأدلة ترتيباً حسناً وجعلها تحت قواعد رئيسية فستكون مادة البحث من أدلة المعتزلة من هذه الرسالة مع العلم أنه ذكر في هذه الرسالة قرابة ستة وثلاثين وجهاً من الأدلة العقلية والنقلية .

(٣٠) انظر أيضا في أدلة القدرية شرح الأصول الخمسة ص ٣٥٥, المعتزلة وأصولهم الخمسة للمعتق ص ١٧١, قضية الثواب والعقاب بين مدارس الإسلاميين بياناً وتأصيلا د/ جابر الزايد السميري ص ٢٨٩ وما بعد, القضاء والقدر للمحمود ص ٣٣٥ وما بعدها .

(٣١) انظر: أقوم ما قيل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٩/٨، ١٠٠؛لوامع الأنوار البهية ٣٠٧/١،٣٠٦ ؛موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة للغصن ٦٠٩/٢ .

(٣٢) المواقف للإيجي ٦٦٣/٣ وهو من أهم الكتب التي صاغت المذهب الأشعري في صورته النهائية وانظر أيضاً كلام الجويني في الإرشاد ص٢١٠

(٣٣) انظر نماذج متعددة لهذه التأويلات في موقف المتكلمين للغصن ٦١٧/٢ .

(٣٤) موقف المتكلمين للغصن ٢/ ٦٢٤، ٦٢٥.القضاء والقدر للمحمود ص ٢٩٢.

(٣٥) رسالة الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ضمن الفتاوى ٣٤٠/٨, ٣٤١؛وانظر وسطية أهل السنة د/محمد باكريم ص٣٨٤.

(٣٦) رسالة الاحتجاج بالقدر ٨ /٨٤٠ ؛ووسطية أهل السنة ص ٣٨٤.

(٣٧) مذهب أهل السنة في الإرادتين: منهاج السنة النبوية ٣/ ١٨٠,١٨٣ وغيرها من المواطن؛ رسالة مراتب الإرادة لابن تيمية ١٨٨/٨ ضمن (مجموع الفتاوى)؛ مجموع الفتاوى ٤٤٠/٨، ٤٧٧،٤٧٦،٤٤١ ؛شفاء العليل ص ٢٨٠ شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٩ جهود الشيخ محمد

أمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف ٥٤٢/٢ منهج الحافظ بن حجر في العقيدة لمحمد إسحاق ٣٨٨/١ الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد الحمد ص٨٩, القضاء والقدر للأشقر ص ١٠٤ الإرشاد شرح لمعة الإعتقاد للجبرين ص ٢١٨

(٣٨) الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد الحمد ،الرياض ،الطبعة الثالثة١٤١٩م /ص ٩٠

(٣٩) شفاء العليل ص ٥١

(٤٠) التنبيهات اللطيفة للسعدي ص ٨٢ وانظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ص ٢٢٧ –٢٢٩

(٤١) انظر نحو هذا السؤال والإجابة عليه: مجموع فتاوى ابن عثيمين ٩٧/٢

(٤٢) تاريخ الطبري ٢١٩/٤ وانظر فتح الباري ٤٥١/١٣

(٤٣) انظر مدارج السالكين ١٩٣/٢ تحقيق الفقي, شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨٠, لوامع الأنوار البهية ٣٣٩/١